حجة الاسلام الغزالى

سيرة وفلسفة

للدكتور مهدى علام

هذه صورة رائعة لإمام من أعظم أئمة الفكر الإسلامى ، وترجع روعتها إلى عدة أسباب ، أهمها أنها صورة لمفكر أرقه الشك حينا فاتخذه وسيلة للوصول إلى اليقين ، ودانت له الدنيا وما فيها من متاع فهجرها إلى الزهد والتصوف ، وملأ جوانب حياته بالتفكير النظرى والعملى ولم يبخل به على أحد فعلمه للناس ودونه لنا فى كتب نستمد منها الرأى والرشاد .

كان فى مدينة طوس من بلاد خراسان ، فى منتصف القرن الخامس الهجرى رجل يغزل الصوف ويتجر به . ولكنه كان من محبى العلم والعلماء ، يطوف على المتفقهين فى الدين ويتوفر على خدمتهم ، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع إلى الله أن يرزقه ولداً وأن يجعله فقيها . ذلك هو والد فيلسوفنا الغزالى . وقد لبى الله دعاءه فرزقه بنابغة من نوابغ الإسلام ، وإمام من أئمة الفكر .

وقد طلب الغزالى العلم وهو فتى على طريقة أهل زمانه ، ولكن حادثة حدثت له فغيرت أسلوبه فى الدراسة . فقد سافر إلى جرجان ليطلب العلم على الإمام أبى نصر الاسماعيلى ، وعلق عنه « التعليقة » (أى مذكراته العلمية) ثم قفل راجعاً إلى طوس .

وفى أثناء رجوعه قطع عليه الطريق ، فأخذ قطاع الطريق جميع ما معه ومضوا ، فتبعهم فالتفت إليه رئيسهم وقال : ارجع ، وإلا هلكت . فقال له الغزالى : « أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتى فقط ، فما هى شىء تنتفعون به » .

فقال له رئيس اللصوص : وما تعليقتك هذه ؟ فقال الغزالى : كتب فى تلك المخلاة هاجرت لسماعها

وكتابتها ومعرفة علمها . فضحك رئيس اللصوص وقال : كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه فأرجع إليه المخلاة .

حركت هذه الحادثة إدراك الغزالى لطريقة طلب العلم ، فقال لنفسه : هذا رجل أنطقه الله ليرشدنى فى أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ماعلقته ، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى .

وقد تنقل الغزالى فى الحواضر العلمية دارسا ومدرسا ، فذهب إلى نيسابور ، ولازم الحرمين ، ثم انتقل إلى مجلس نظام الملك ، وكان مجلسا حافلا بالأئمة والعلماء ، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد . وقد ظل رفيع المقام . مقصودا من كل مكان ، ولكن نفسه زهدت فى مظاهر الدنيا . فترك بغداد وذهب إلى بيت الله الحرام فحج ، وتوجه إلى الشام ثم اعتكف فى زاويته بالجامع الأموى وهى لاتزال معروفة إلى اليوم باسم الزاوية الغزالية . وهنا تصوف فلبس الثياب الخشنة ، وقلل طعامه وشرابه ، وشرع فى تأليف كتابه « إحياء علوم الدين » فكان ثمرة لعلمه وعمله ، سطعت فى فصوله حجة الإسلام ، كما انتظمت بحوثه فلسفة الدين والأخلاق . يتخللها جميعها روح التصوف . وقد كتب عدة كتب أخرى فى الفلسفة الإسلامية ، ولكن أهمها كتاب إحياء علوم الدين » .

نظر الغزالى إلى الإنسان من حيث هو مخلوق ذو غرض دينى خلق يسعى لتحقيقه . ومثل هذا المخلوق يجب أن يتعلم ، والعلوم التى يتقرب بها إلى الله تعالى تنقسم إلى ظاهرة وباطنة . والعلوم الظاهرة قسمان : معاملة بين العبد والله تعالى ، ومعاملة بين الإنسان والمجتمع الذى يعيش فيه . والعلوم الباطنة قسمان كذلك : ما يجب تطهير القلب منه من الصفات المذمومة ، وما يجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة . وعلى هذا الأساس الرباعى كتب الغزالى كتابه الذى يقول فى مقدمته :

« ولقد أسسته على أربعة أرباع ، ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات » .

ويقول الغزالى إن الذى حداه إلى تأليف هذا الكتاب أنه رأى انصراف الناس عن دراسة العلوم الدينية

إلا لغرض الفتوى والقضاء أو للبراعة في الجدل والمباهاة في إفحام الخصوم. « فأما طريق علم الآخرة وما درج عليه السلف الصالح، مما سماه الله سبحانه وتعالى في كتابه فقها وحكمة وعلماً وضياء ونوراً وهداية ورشداً، فقد أصبح من الخلق مطوياً، وصار نسياً منسياً. ولما كان هذا ثلما في الدين.. رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب ».

والغزالي هنا يحسن عرض الرأي الإسلامي في أن التفقه في الدين ليس وقفا على فئـــة من الناس يوزعون الرحمات، كما أنه ليس الغرض منه ارهاف الجدل وإفحام الخصوم، فقد ذم النبي — صلى الله عليه وسلم — « الثرثارين والمتشدقين والمتفيهقين ».

وفي الربع الأول يتكلم عن العلم وقواعد العقائد وسائر العبادات الدينية. وهو هنا يستمد من علم الفقيه وإدراك الفيلسوف الذي يدرك الأمور إدراكا شاملا، ويرى علاقاتها بعضها ببعض. ويشرح في الربع الثاني قسما من أهم أقسام السلوك الانساني، فيتكلم في آداب كسب العيش، والحلال والحرام، وآداب الصحبة والأكل والمعاشرة والعزلة والسفر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبعبارة أخرى يشرح الدستور الإسلامي في آداب المجتمع. وفي الربع الثالث — ربع المهلكات — يتكلم عن رياضة النفس وكيفية علاج الشهوات والنزعات من آفات القلب واللسان، فيشرح الغضب والحقد والحسد والبخل والتكبر. وفي ربع المنجيات يعرض للتوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والزهد ومحاسبة النفس.

ولا يدعي الغزالي لنفسه في هذا الكتاب فضلا لا يستحقه فهو يقول: « ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتبا، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور: الأول حل ما عقدوه وكشف ما أجملوه. الثاني ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه. والثالث إيجاز ما طولوه وضبط ما قرروه. الرابع حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه. الخامس تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الافهام لم يتعرض لها في الكتاب أصلا ».

يتناول الغزالي موضوع رياضة النفس وتهذيب الخلق مقارنا علم الأخلاق والطب، فأحدهما طب

النفوس ، والآخر طب الأجسام . ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان — وليس فى مرضها إلا فوت الحياة الفانية — فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب — وفى مرضها فوت حياة باقية — أولى . وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذى لب ، إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت ... »

ومن قديم اختلف الفلاسفة فى إمكان تغيير الأخلاق فى الإنسان ، فمنهم من ينادى بأن أى تغيير غير ممكن ، ومنهم من يرى أن أى تغيير ميسور . والغزالى يندد بمن يقول إن تغيير الأخلاق مستحيل ، ولكنه يكتب بحيطة العالم البصير ، فلا يهمل جانب الوراثة ولا جانب البيئة فى هذا التغيير : « وكيف ينكر هذا التغيير فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن — إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ؟ . . وكل ذلك تغيير للأخلاق » .

ثم يضيف إلى ذلك قوله : « فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة بالتربية ولا تصير تفاحا أصلا ولو بالتربية . فإذا كانت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض ، فكذلك الغضب وسائر النزعات لو أردنا قمعها وقهرها بالكلية حتى لا يبقى لها أثر ، لم نقدر عليه أصلا ، ولو أردنا سلاستها وقيادتها بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه . نعم الجبلات مختلفة ، بعضها سريعة القبول ، وبعضها بطيئته . »

ثم ينتقل الغزالى إلى ما يعتبر فيه من أسبق علماء الاجتماع وعلم النفس الإجرامى فيقول : « إن الناس . . . على أربع مراتب : الأولى وهو الإنسان الغفل الذى يميز بين الحق والباطل . . . ولم تستتم شهوته باتباع اللذات فهذا سريع القبول للعلاج جداً . . . والثانية أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح ، بل زين له سوء عمله ... فأمره صعب . . . إذ عليه قلع ما رسخ فى نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد . . . ثم يغرس فى نفسه صفة الاعتياد للصلاح ، ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم . والثالثة أن يعتقد

فى الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة .. و (يكون قد) تربى عليها ، فهذا يكاد تمتنع معالجته،،إلاعلى الندور .. والرابعة أن يكون مع نشئه على الرأى الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة فى كثرة الشر.. ويباهى به .. وهذا هو أصعب المراتب .

والأول جاهل فقط،والثانى جاهل وضال ،والثالث جاهل وضال وفاسق والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير.

والحق أن الغزالى كان فى هذا البحث من السابقين الأولين..ويذكرنى تقسيمه هذا بتقسيم قريب منه كتبه العلامة مكنزى (بعد الغزالى بتسعمائة سنة) عن طبقات المجرمين ، فهو يقسمهم إلى فئات أربع :

١ — فئة المجانين الذين لا مسئولية عليهم .

٢ — وفئة تصاب بنوبات واضطرابات عصبية ، أى المجانين جنوناً مؤقتاً .

٣ — وفئة تتبع مبادىء خاطئة ولكن مع اعتقاد أنها صواب .

٤ — وفئة مستهترة لا تكترث للتبعة الأخلاقية فهى ترتكب الذنوب مع اعتقادها أنها خطأ .

ويرى مكنزى أن الفئة الأولى حين تجرم تحجز فى المستشفيات العقلية للعلاج ، والثانية يستشار فى شأنها خبير بعلم النفس التحليلى ، والفئة الثالثة تحتاج إلى مقوم أخلاقى لتعديل مقاييسها فى الحياة . أما الفئة الرابعة فليس لها إلا العقوبة .

وبعد فهذه شهادة العلم الحديث بعد تسعة قرون لحجة الإسلام الغزالى فى سلامة تفكيره وسبقه فى الفضل .